العدد السادس والعشرون
2009

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا
1377 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2009 مسيحي

- ملامح عن المذهب المالكي في الغرب الإسلامي
- الخطاب الإسلامي مميزاته والتحديات التي تواجهه
- الشيخ محمد عبده وصلاته بأعلام الإصلاح في المغرب الكبير
- اللغة وصناعة الهوية

الخطاب الإسلامي
مُمَيِّزَاتُهُ وَالتَّحَدِّيَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُه

أ. د. محمّد فتح الله الزيادي

تمهيد:

لعل أول ما يجب التنبيه إليه أن موضوع الخطاب الإسلامي قد حظي باهتمام الكتَّاب والباحثين منذ أمد بعيد، حيث يرجع في أقرب تقدير له إلى أوائل القرن الماضي، ومعنى ذلك أن دراسة هذا الخطاب والاهتمام به ليست وليدة أحداث الحادث عشر من سبتمبر، ولا هي من ردات فعل الهجوم الغربي على الإسلام والمسلمين، إنها قضية فرضت نفسها في ميدان البحث العلمي المعاصر؛ خاصة من قبل كتاب الغرب الذين تشير بعض المصادر إلى أنه يوجد ما يزيد على ثلاثين ألف بحث صدر حول هذه القضية؛ تتقدمهم كتب: أرنست رينان مارجليوث وشلدرن ودومينو كولينسكي وغيرهم، وفي إطار الفكر العربي برزت كتابات البُحَّاث العلمانيين بإيديولوجياتهم المختلفة ممثلة اتجاهاً بحيث يصعب التفريق بينه وبين منهجية البحث الاستشراقي على الرغم من تسترها خلف أطر منهجية ومعرفية غير مقنعة، وفي كل الأحوال فإن هذا الكم الهائل من الأبحاث التي تناولت الخطاب الإسلامي لم يستطع التخلص من

إيديولوجياتها المختلفة، حيث اتجهت إلى رسم صور مختلفة لهذا الخطاب مستخدمة في ذلك مناهج معرفية متباينة، ومنطلقة في الحكم عليه من خارجه لا من داخل أطرِ هذا الخطاب المعرفية والفكرية.

إن دراسة الخطاب الإسلامي ومراجعته المستمرة تكتسي أهمية كبرى خاصة للعاملين في الحقل الدعوي، إذ تتوقف نجاحاته على ما يقدمه هذا الخطاب من نتاج فكري قادر على التبشير بالإسلام وإقناع الآخر به، وفي هذا الإطار فإن عامل الزمان والمكان لهما دور مؤثر في صياغة هذا الخطاب وتوجيهه نحو مسارات يستطيع من خلالها أن يقوم بدور بارز في إظهار الإسلام ديناً صالحاً لكل زمان ومكان، وحضارة قادرة على التفاعل مع الأحداث والتغيرات المختلفة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا اتصف الخطاب الإسلامي بالحيوية، وتسلح بالوعي، واتجه إلى الانفتاح على الآخرين من أجل كسر حواجز الجمود والانغلاق التي تعيق كل خطاب من أن يكون مؤثراً وفعالاً.

إن حاجتنا اليوم تبدو أكثر إلحاحاً لدراسة الخطاب الإسلامي والبحث في مضمونه ووسائله ومنهجيته ومستهدفاته، وذلك لما اتصف به عصرنا من تغيرات مذهلة طالت جميع جوانب الحياة، وأثرت فيها، وهددت قيمها وتراثها، وطال التهديد حتى ثوابتها، ومن هنا وجب ترشيد الخطاب الإسلامي المعاصر بما يحقق له حضوراً واعياً في هذه التغيرات يستطيع من خلاله فهم الواقع بمختلف أبعاده، وتحليله بما يضمن إنتاج معرفة إسلامية جديدة تساهم في حل كثير من مشكلات الحياة المعاصرة.

إن التقدم الهائل في وسائل الاتصال الذي نعيشه فتح المجال لكافة أنواع الخطابات من أن تغزو القلوب وأن تصم الآذان، وما لم يكن الخطاب الإسلامي المعاصر عقلانياً ومنطقياً واعياً؛ فإن مسيرة المسلمين ستتردى يوماً بعد آخر، ودورهم في الحضارة الإنسانية سيتقهقر، وسيبقون وعاء جاهزاً لاستقبال ثقافة الآخر وحضارته، بل وحتى معتقداته.

تحديد المصطلح:

هروباً من التضليل الإعلامي المتعمَّد بتزييف المصطلحات، وقفزاً فوق الاستخدام غير العلمي للمصطلحات الإسلامية خاصة، أقول: إنني أعني بمصطلح (الخطاب الإسلامي) خطاب المسلمين؛ أي: الفكر الإسلامي، وليس الإسلام الذي هو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، إننا حين نتحدث عن الخطاب الإسلامي نعي حقيقة أننا لا نتحدث عن خطاب القرآن (الوحي)، وما يعرضه من قضايا مختلفة قد نتفق أو نختلف في فهم مدلولاتها، ولكن الخطاب الإسلامي المقصود هو ما يصدر عن المسلمين من فكر يتناول تحليل قضايا القرآن الكريم، أو تحليل الواقع الإسلامي بتحدياته المختلفة، إنه خطاب الدعاة والوعاظ والخطباء والمفتين والباحثين، ونتاج مراكز البحث العلمي الإسلامي، وما تتناوله الصحف والإذاعات الإسلامية من قضايا توجه إلى الجماهير بمختلف فئاتها؛ لتقدم لهم الإسلام عقيدة وشريعة ونظاماً أخلاقياً وحياتياً متكاملاً.

إننا بهذا التحديد ندرك أننا حين ندرس الخطاب الإسلامي فإننا لا نقصد الخطاب القرآني، لأنه وإن ارتكز الخطاب الإسلامي على الخطاب القرآني وتأسس عليه إلا أن بينهما خلافاً من أوجه متعددة؛ لعل أبرزها: ثبات الخطاب القرآني وصلاحيته الدائمة للعطاء والتجدد دون تأثر بالزمان والمكان، في مقابل الخطاب الإسلامي الذي يتصف بالتغير، ويتأثر بعوامل الزمان والمكان، ولهذا يمكننا القول: إن الخطاب الإسلامي هو المحاولة المستمرة لفهم الخطاب القرآني والتبشير به والدعوة إليه والدفاع عنه.

إن مسألة تحديد المصطلحات هذه ذات أهمية كبيرة في قطع الطريق أمام أولئك الذين يتحدَّثون عن الخطاب الإسلامي بسلبية مطلقة في منهجية مضطربة تخلط بين الإسلام والفكر الإسلامي، ولعل من نتائج هذا الخلط أنه يمثل أحد أبرز أدوات الاستفزاز لمن يحاولون تنصيب أنفسهم المحامين عن

الإسلام، الأمر الذي ينتج عنه خطاب إسلامي ينطلق من ردة فعل تبتعد بالضرورة عن قيم الإسلام ومثله السمحة، الإسلام واحد والخطاب الإسلامي متعدد ومتباين، لأنه تعبير عن مواقف واتجاهات ومدارس مختلفة، يختلط فيها السياسي بالديني والاقتصادي بالاجتماعي، يبرز فيه الموروث حتى ليخيل إليك أنك أمام تلك العقلية التي خاطبها القرآن في بداية الدعوة، ويبرز فيه الجديد المنسلخ من كل ثوابت الماضي وقيمه، حتى ليخيل إليك أنك أمام عقلية لا تكتسب من الإسلام إلا مجرد الانتساب إليه، والغائب الوحيد في هذا الخطاب هو المنهج الوسط الذي يحاول أن يعيش واقعه دون التخلي عن ثوابته ودون نسيان محيطه الذي يعيش فيه.

أقسام الخطاب الإسلامي:

أتصور أن الخطاب الإسلامي ينقسم إلى قسمين رئيسين هما:

أ) **الخطاب الداخلي**: وهو كل خطاب ينطلق من مسلم إلى مسلم؛ أي: أن مجال توجيهه وتأثيره المجتمعات الإسلامية، ويشمل هذا النوع: خطب الجمعة، ودروس الوعظ والإرشاد، ومناهج التعليم في مختلف مؤسساته، ورسالة الإعلام بمختلف وسائله، ودور المؤسسات الدينية بمعاهدها وكلياتها الشرعية ومراكزها البحثية، وتكمن أهمية هذا النوع من الخطاب في أنه المسؤول عن تربية الفرد المسلم وتقوية عقيدته، والمحافظة على هويته أمام تيارات التغريب والإلحاد والتشويه المتعمد لكافة جوانب الحياة الإسلامية.

ب) **الخطاب الخارجي**: وهو كل خطاب يوجه إلى غير المسلمين شرحاً لمبادئ الإسلام، وتوضيحاً لقيمه ومثله، أو دفاعاً عنه وصداً للاعتداء على ثقافته وحضارته، أو هو الذي يعالج قضايا الأقليات الإسلامية في المجتمعات غير المسلمة، ولعل هذا النوع من الخطاب يقترب من مفهوم الدعوة الإسلامية

ويتداخل معه أحياناً لدرجة التطابق، مما يحمله بشروط وضوابط إضافية تجعله المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125).

وكلا النوعين مقصودان بدعوات تحديث الخطاب الإسلامي أو تجديد الخطاب الديني، لكن النوع الثاني هو المعني أكثر بهذه الدعوات في العالم المعاصر نتيجة تأثير هذا النوع في العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين العالمين الإسلامي والغربي، غير أن أحداث 11 سبتمبر قد قلبت المعادلة، فجعلت النوع الأول أكثر أهمية لدى صناع القرار الغربي مما أفرز أجندة غربية لتجديد الخطاب الإسلامي، تبدأ بالتدخل في تغيير المناهج مروراً بتدريب الأئمة، وانتهاء بتغيير كثير من المفاهيم الإسلامية.

مكونات الخطاب الإسلامي:

يتكون الخطاب الإسلامي من مصدرين مختلفين؛ هما:

1 ـ **المصدر الإلهي**: وهو المتمثل في الوحي قرآناً وسنة صحيحة، وهذا المصدر غير قابل للنقد أو للتجديد؛ لأنه كمال مطلق، فهو من حيث اللغة إلهي الصنعة لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله مهما بلغ التقدم البشري في مختلف العلوم؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: 88)، وهو من حيث المضمون يتصف بالمعاصرة الدائمة، أي: الصلاحية لكل زمان ومكان، فأحكامه وقواعده وتوجيهاته الكلية تستوعب التغيرات الزمانية والمكانية، ولهذا يمكن وصفه بالثبات فهو المحور الذي تدور حوله أشكال الخطاب الأخرى.

2 ـ **المصدر البشري**: أو الفهم البشري للمصدر الإلهي فهو استنباط الأحكام وتفسير النصوص والاجتهاد في المسائل الحياتية المختلفة، وهو بشكل عام التحليق في آفاق النصوص بمستويات مختلفة حسب القدرة البشرية، وبالقدر

الـذي اقتـضته القـدرة الإلهيـة لكـل زمـان في إدراك مرامـي النـصوص ومقاصدها، وهذا المصدر يستند ـ أو بصورة أكثر علمية: يحـاول أن يـستند ـ إلى المصدر الإلهي ويقترب منه، ولكنه لا يمكن أن يتماثل معه؛ لأنه يستعـصي عليه الإحاطة بمضامينه، ويستعصي عليه أيـضاً ـ كـما أشرت ـ الوصـول إلى مستوى تركيبته اللغوية المعجزة.

مع كل ما تقدم، فإن المشكلة الرئيسة في أي حديث حول الخطاب الإسلامي هي الخلط بين هذين المـصدرين، ومـن هنـا أيـضاً فـإن معظـم دعـوات التجديـد والتحديث للخطاب الإسـلامي قوبلـت بـالرفض والاسـتهجان وحتـى التكفـير أحياناً؛ لأنه ظن أن المقصود هو النوع الأول ـ أي: النصوص ـ بينما يـدرك كـل ذي بصيرة أن هذه غير قابلة لذلك بحكم طبيعتها لا بحكم موقفنا منها، ولـذلك فـإن دعوات التجديد والتحديث والتطوير والمراجعة لا تقع أبداً على النص لأنـه لـيس مشكلة العصر، فالنص كما أراده الله لا يخلـق مـشكلة وإنـما أنزلـه سـبحانه ليحـل مشكلة ويعالج قضية، ومن هنا فـإن محـور أي حـديث عـن الخطـاب الإسـلامي خاصة في عصرنا هذا، يجب أن يتوجه إلى النـوع الثـاني الـذي هـو بحكـم طبيعتـه وبحكم مواقفنا المتباينة منه قابل لكـل أنـواع التطـوير والمراجعـة، خاصـة في ظـل المتغيرات والمستجدات المعاصرة، والتي حمَّلت الخطاب الإسـلامي المعـاصر كثـيراً من الأزمات التي تشهدها الساحة الدوليـة، ممـا فـتح المجـال واسـعاً أمـام أعـداء الإسلام لشن حرب صـليبية جديـدة بأسـلوب جديـد يـضع الإسـلام في قفـص الاتهام، بل ويصل الأمر إلى الحكم عليه بإبعاده من مسار الحياة المعاصرة[1].

مضمون الخطاب الإسلامي:

الحديث عن مضمون الخطاب الإسلامي يعني بالـضرورة الحـديث عـن هذا الخطاب في مستواه الإلهي؛ أي:المضمون القرآني لأنه الأساس وهو المصدر،

(1) الإسلام وتطوير الخطاب الـديني، رابطـة الجامعـات الإسـلامية، سلـسلة فكـر المواجهـة (3)، 2002م، ص 61 ـ 67.

وهو المعبر الحقيقي الذي تستند إليه الخطابات الأخرى التي تنتسب إلى الإسلام، وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى المضامين التالية:

1 ـ **إنه خطاب إنساني النزعة:** فهو يستهدف الإنسان من حيث إنه كائن مكرم، شرفه الله بأن يتولى مسؤولية الخلافة والإعمار في الأرض، ولذلك تضمن الخطاب القرآني كل ما يصلح شأن الإنسان ويوجهه لتحقيق هذه الخلافة.

والمتأمل في آيات القرآن يجد أن لفظ الإنسان قد تكرر ثلاثاً وستين مرة، كما تكررت كلمة الناس مائتين وأربعين مرة، وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بعناية فاقت في احترامها وتكريمها له كل الديانات والفلسفات والمذاهب الأخرى، ويمكن رصد مظاهر هذه العناية في قضية استخلافه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: 30)، وفي تسخير الكون له: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: 20)، وفي خلقه في أحسن صورة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: 4).

والحديث عن النزعة الإنسانية في الخطاب القرآني يقود بالضرورة إلى ما يترتب عليها من احترام لحقوق هذا الإنسان في كافة صورها، إذ لا معنى لهذه الإنسانية دون احترام لهذه الحقوق؛ ومنها: حق الإنسان في الحياة؛ حيث يحرم الله قتل النفس إلا بالحق؛ ويجعل إهدار الدم من أكبر الموبقات: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الإسراء: 33)، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 93)، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: 32)، وللحفاظ على النفس الإنسانية شرع القصاص ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ (البقرة: 178)، كما كفل القرآن للإنسان حق الحرية؛ حيث جعله مسؤولاً عن جميع تصرفاته، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا

يَلْقَنْهُ مَنشُورًا ﴾ (الإسراء: 13)، وليس لهذه الحرية حدود في الإطار الشخصي، بل إنها تمتد لتشمل حتى الجانب العقدي؛ حيث الإنسان حر في اختيار ما يعتقد: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: 29)، كما كفل له حق القيام بما يطبق، فلا يوجد في الخطاب القرآني تكليف بمستحيل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة: 286)، وكفل له أيضاً حق التفكر والتدبر وإعمال العقل: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: 36)، كما كفل له حرية الإبداع في حدود الطاقة البشرية: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ (الرحمن: 33).

ولتأكيد المضمون الإنساني في الخطاب القرآني توجهت الآيات إلى إبراز وحدة النوع الإنساني كطريق لإظهار مبدأ الأخوة الإنسانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: 1)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(الحجرات: 12)، ولعل في الإشارة القرآنية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ تأكيداً آخر على هذا المضمون بإضفاء طابع المساواة على النوع الإنساني، فهو كما يقول الرسول الكريم (ﷺ): «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[1]، ولعل إقرار مبدأ المساواة هذا يضيف لتكريم الإنسان بُعداً آخر، حيث يحرم معه التمايز الطبقي والتفاضل العرقي، وتحرم العصبية والتعصب، ويبقى المعيار الوحيد للمفاضلة بين أفراد النوع الإنساني هو ما يقدمه الفرد لنفسه ومجتمعه وأمته ودينه، وهي ما جمعت كلها في مصطلح (التقوى).

(1) رواه البيهقي، من حديث جابر.

ويرتبط بقضية المساواة في الخطاب القرآني أمر أكثر أهمية في تنظيم العلاقة بين أفراد النوع الإنساني، وهو الدعوة للحوار والتفاهم بالحسنى في كل أمور الحياة، وخاصة في مجال العقيدة التي هي أخطر جوانب الحياة التي يقع حولها الصراع البشري، ومن هنا أكد القرآن الكريم على ضرورة الالتزام باليسر واللين في الدعوة إلى الله، وفي التعامل مع الآخر: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: 125)، كما دعا أتباع الديانات الأخرى إلى اتباع أسلوب الحوار والوصول إلى قدر مشترك من التفاهم يجنب البشرية مخاطر الصراع والصدام، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 64).

وهكذا يتضح أن الخطاب الإسلامي الحقيقي هو خطاب الإنسانية جمعاء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 107)، وأنه لا مكان في الخطاب الإسلامي للنزعة الفردية التي تنتج التسلط أو الهيمنة أو التعصب أو التطرف، وأن كل خطاب يخلو من هذه النزعة الإنسانية ويفتقد خاصية احترام الإنسان ديناً وعرقاً وثقافة وحضارة لا يمكن أن يحمل صفة الخطاب الإسلامي الصحيح.

2 ـ **هو خطاب المعرفة والعلم**: فرسالته افتتحت بالدعوة إلى القراءة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: 1 ـ 5)، وتردد العلم في الخطاب القرآني في أكثر من موضع: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم: 1)، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة: 11)، وهذا يعني أن مضمون الخطاب الإسلامي يجب أن يتسلح بالعلم والمعرفة، وأن يكون ذا وعي بقضايا العصر وطبيعة المشكلات حتى يكون واقعياً وعقلانياً، ولهذا كثرت الدعوة في الخطاب القرآني إلى إعمال العقل والتدبر والتفكر من أجل غلق الباب أمام الخرافة والأسطورة

والخيال التي لا تتناسب وطبيعة الرسالة الخاتمة التي جاءت لحل مشكلات البشرية قاطبة طوال الفترة الباقية من حياة البشرية.

3 ـ **هو خطاب يتضمن وسطية في المنهج**: فلا مغالاة ولا غلو وتطرف، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة: 143)، ولكي يُمكِّن المسلمين من تولي الشهادة على الناس دعا الخطاب القرآني إلى الاستقامة وعدم الطغيان: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (هود: 112)، وتبدو وسطية المنهج هذه في كل جوانب الخطاب الإسلامي فهي وسطية في المزاوجة بين طبيعية الإنسان المادية والروحية: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: 77)، وهي وسطية الاعتراف بالواقع البشري: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: 10)، وهي وسطية مسايرة الفطرة وتهذيب الغرائز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (المائدة: 87 ـ 88)، وهي وسطية تنحو إلى بساطة العقيدة ويسر التكاليف: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج: 78)، وهكذا فوسطية الخطاب الإسلامي ظاهرة في العقيدة والشريعة، وفي كل جوانب الحياة، ولذلك فإن أي خطاب يجنح إلى الغلو والتطرف،ويكلف الإنسان بما لا يستطيع أو بما هو غير واقعي هو خطاب غير إسلامي.

4 ـ **هو خطاب يتصف بالمرونة ويراعي المتغيرات**: ويتضح ذلك في خطابه الكلي الذي لا يلجأ إلى التفصيلات الدقيقة، ولا يحدد الوسائل والأوعية للتطبيق، ومن ذلك مثلاً حديثه عن الشورى كمنهج للحكم دون أن يعطي نموذجاً محدداً لشكلها ومستوياتها وآلياتها؛ ليترك الأمر في ذلك للمجتمعات البشرية

التي يجب أن تكيف هذا المبدأ بما يلائم ظروفها الزمانية والمكانية، وفي ذلك من التوسعة ورفع الحرج على الناس ما لا يوجد في أي رسالة أو ديانة أخرى، ومثل هذا يقع في معظم القضايا التي يعرضها الخطاب القرآني كقضايا المال والعلاقات الاجتماعية والتعامل مع متع الحياة الدنيا المختلفة.. إلخ، وهذا المضمون يوضح لنا خطأ الخطابات التي تحاول أن تقولب الإسلام في أشكال جاهزة تفرض أنماطاً محددة في أشكال الحكم والاقتصاد واللباس والمظهر.. إلخ.

5 ـ **هو خطاب اليسر ورفع الحرج والمشقة**: أي هو خطاب الواقع الذي يراعي الفطرة البشرية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: 185)، ويوجه الخطاب القرآني المؤمنين إلى ألا يضيقوا على أنفسهم فوق ما وسع الله لهم فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة: 101) وتأكيداً على هذا المعنى يقول الرسول (ﷺ): «ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1].[2].

ومنهج التيسير هذا أصل من أصول الإسلام يتردد صداه في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والتي يكشف استعراضها انحراف كثير من الخطابات الإسلامية المعاصرة، والتي تحاول أن تضع حدوداً نهائية للشريعة تنطلق من تفسيرات للنص غفلت عن هذا المنهج، وبالتالي تضيق على الناس حياتهم؛ خاصة في بلاد الأقليات المسلمة التي يعاني فيها المسلمون كثيراً من غياب هذا المنهج لدى من تصدوا للإفتاء هناك.

---

(1) أخرجه أبو داود وتفرد به، ورجاله ثقات، باب الأطعمة (3306).

(2) د. أحمد كمال أبو المجد، حول الخطاب الديني المعاصر، وجهات نظر، ع 38، س 4، مارس 2002، ص 5.

6 ـ **هو خطاب العقل**: يعلي من شأنه، ويعظم من دوره، ويجعله الطريق الموصل للحقائق وفي مقدمتها الإيمان، ولهذا تتردد الإشارة إلى العقل في معظم سور القرآن الكريم في صيغ مختلفة: يعقلون ـ يتدبرون ـ يتفكرون ـ يفقهون ـ ينظرون ـ يبصرون ـ يعتبرون ـ أولو الألباب ـ أولو الأبصار ـ أولي النهى، ومعنى ذلك: أن إعمال العقل أمر واجب، وتعطيله إيقاف للحياة البشرية، وأن النصوص لا يمكن أن تفهم بغير أن يكون للعقل دور في فهمها وتفسيرها وتصديقها، ولهذا يعلي الله من شأن العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾(فاطر: 28).

لأنهم بإعمالهم للعقل وتدبرهم وتفكرهم في مظاهر الكون يتميزون عن سائر شرائح المجتمع التي لم تتمكن من إعمال عقولها، ولأهمية العقل قال عنه حجة الإسلام الغزالي: العقل: «أنموذج من نور الله»، وقال عنه الجاحظ: «إنه وكيل الله عند الإنسان»[1].

وتتعاظم أهمية العقل في الخطاب القرآني؛ حين يتم الربط بينه وبين مسؤولية الإنسان في قبول الحقائق؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: 36). وهذا يعني مسؤولية الإنسان في قبول كل الحقائق الإيمانية والحياتية، ومن هنا كان إيمان المقلد في أدنى درجات الإيمان، ولذلك أيضاً يصف الخطاب القرآني من يعطلون عقولهم بالأنعام: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف: 179)، ويقدم القرآن صورة لمن عطلوا عقولهم فيقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك: 10 ـ 11).

(1) د. محمود زقزوق، قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام، دار المنار، ص 91.

ورغم هذه الأهمية التي يعطيها القرآن للعقل؛ فإنه لا يجعله أبداً مناقضاً للوحي كما هي مشكلة الخطاب الإسلامي المعاصر، بل إن الوحي هو أساس العقل ومجاله، فالوحي الذي هو الكمال المطلق والثبات الدائم والنص المتجدد محتاج إلى العقل لوضعه في الإطار الذي يقترب من المراد الإلهي، والذي من خلاله يمكن حل الكثير من مشكلات الحياة المعاصرة، ومن هنا يتبين أن التشريع الإسلامي قائم على مصدرين غير متناقضين: النقل والعقل، مهمة الأول التأسيس للحكم الشرعي، ومهمة الثاني التفسير والتأويل والتصديق، ومهمة العقل هذه تقتضي أن مجال عمله فيما يحتاج إلى التأويل، أما ما هو واضح مفصل كأحكام المواريث فلا مجال للعقل فيها إلا من جانب إيضاح المقصد الشرعي فيها، وقد عني كثير من علمائنا بإبراز دور العقل في الإسلام، وأكدوا على أنه قسيم للنقل، ومن ذلك مثلاً الإمام الشاطبي في كتابه (الموافقات)؛ حيث يقول: «الأدلة الشرعية ضربان: أحدهما: ما يرجع إلى النقل المحض، والثاني: ما يرجع إلى الرأي المحض، وهذه القسمة هي بالنسبة إلى أصول الأدلة، وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقولات لابد فيه من النظر، كما أن الرأي لا يعتبر شرعاً إلا إذا استند إلى النقل، فأما الضرب الأول فالكتاب والسنة، وأما الثاني فالقياس والاستدلال[1].

ومن هذا المنطلق فإنه لا يتصور وجود تناقض بين المعقول والمنقول: «لأن ما جاء به الوحي، ليس فيه ما يناقض العقل، بل هو جار كله على مقتضى مبادئه: فقد جاء في هذا الوحي، أن العقل هو أساس التكليف، فلو كان فيه ما يناقض العقل لكان فيه تكليف بما لا يُطاق، والحال أنه يعلن أن ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286)، وأما ما يبدو في الظاهر أنه مناقض للعقل مما جاء في القرآن والحديث، فهو إما أن يكون مما يعلو على فهم العقل دون أن يكون

(1) الشاطبي، الموافقات: 3/ 21، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

مناقضاً له، أو مما يبدو في ظاهره كذلك، ويمنع التأويل أن يخرجه من ذلك الظاهر، أو يكون العقل مخطئاً فيما توصل إليه من نتيجة، تبدو مناقضة لما جاء به الوحي، لعدم انتهاجه النهج الصحيح في البحث والنظر، أو يكون ما ظُنَّ وحياً من آحاد الحديث ليس في الحقيقة وحياً، وفي هذه الأحوال كلها لا يكون ما جاء به الوحي مناقضاً للعقل في حقيقة أمره»[1].

بهذا الفهم للعلاقة بين الوحي والعقل يبدو الأمر شديد الغرابة حين يتحول هذا الفهم إلى جدلية تحوِّل الموضوع إلى معركة فكرية؛ يصور فيها العقل مقابلاً للوحي ومعارضاً له، وتشتد المعركة حتى تصبح القضية ثنائية فكرية تتحرك فيها الإيديولوجيات المختلفة، برؤى متعددة منتجة غلواً صوَّره أحد الباحثين حين قال: إن الفكر الإسلامي المعاصر يواجه لونين من الغلو: «غلو الإفراط (النصوص ـ الحرفي) الذي يقف أصحابه عند ظواهر النصوص، مهدرين أدوات النظر العقلي في هذه النصوص، وغلو التفريط (الوضعي ـ المادي ـ العلماني) الذي يصنع أصحابه (بالمادية ـ الوضعية) صنيع الباطنية القدماء، عندما يعممون التأويل، ويطلقونه من ضوابطه اللغوية، فيتجاوزون ـ بدعوى التاريخية ـ أحكام القرآن الكريم، في التشريع والعقائد، والأخلاق»[2].

إن هذا الغلو وهذه المقابلة الخاطئة بين الوحي والعقل قد أثرا سلبياً على الخطاب الإسلامي المعاصر، بإغراقه في فهم خاطئ لمقاصد الشريعة وروح الدين، وكان ذلك سبباً في تقديم صورة مشوهة عن الإسلام فتحت المجال للاتجاهات العلمانية، وللظاهرة الاستشراقية أن تضع الإسلام في عداد الديانات التي لا تتناسب مع العصر، أو في عداد الديانات التي تشكل خطراً على السلم

(1) د. عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهماً وتنزيلاً، كتاب الأمة، عدد 22، المحرم 1410هـ. وانظر ذلك في: الموافقات، للشاطبي: 3/ 15.

(2) د. محمد عمارة، النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية، دار الفكر ـ دمشق، ص 32.

العالمي، وهذه لعمري الكارثة التي لم تكن لتحدث لو أن الخطاب الإسلامي المعاصر اتبع منهج القرآن الكريم في الدعوة والإرشاد، وانطلق من توجيهات القرآن الكريم في إضفاء صفة العقلانية على منتجاته الفكرية في مختلف مستوياتها، إن هذه بحق تعتبر أزمة لا مخرج منها إلا بإصلاح الخطاب الإسلامي ـ في مكونه البشري ـ بالارتداد إلى منهج القرآن الكريم في إعطائه فرصة أكبر ليتمكن من الإبحار بحرية في معالم النص ليقدم تجديداً للفكر الديني يحقق الصلاحية الدائمة للقرآن، ويقدم للبشرية الإسلام كما أراده الله منهجاً حياتيّاً مناسباً لكل زمان ومكان.

ولعل أزمة الخطاب المعاصر هذه تبدو في دعوة أحد الباحثين للخروج منها بشكل يحرر هذا الخطاب من كثير من التحفظ الذي يعانيه حيث يقول: «دعونا نذكر هؤلاء الخائفين من العقل وسلطانه والمشفقين أن تتطاول العقول على النصوص، دعونا نذكِّرهم بأن الله تعالى هو المتكفل بحفظ تلك النصوص، وأن الفقهاء وأهل العلم كانوا ـ ولا يزالون ـ ورثة الأنبياء في المحافظة على تلك النصوص، ولكن الأزمة الحقيقية في ثقافتنا السائدة وفي خطابنا الديني المعاصر أن العقل قد أنزل عن عرشه، وأن قضية العلم قد تراجعت مكانتها في عقول كثير من المتدينين.. وانه إذا كانت آفة الدنيا من حولنا أن بعض الناس قد تصوروا أن العقل يستطيع ـ بغير النقل وهداية الوحي ـ أن يهدي إلى الرشد، فإن آفتنا ـ نحن المسلمين ـ أننا عطلنا العقول، وركنت عامتنا وخاصتنا إلى المنقول، فتوقف كثيرون عن إعمال العقول، وتوقف بعضهم عن السعي وإحسان العمل، واختلط التوكل بالتواكل، وامتزجت القناعة بالخمول، كما اختلطت العفة بالعجز، فتقدم الناس وتأخرنا، وتحركت الدنيا وتجمدنا، ولا خير اليوم في خطاب ديني لا يتصدى لهذه الثغرة ولا يعالج هذا الخلل»[1].

(1) د. كمال ألو المجد، حول الخطاب الديني المعاصر.

أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر:

أتصوَّر أن الخطاب الإسلامي المعاصر يعاني من مشكلات كثيرة، أهمها ما يلي:

أولاً ـ مشكلة المرجعية:

مثَّل القرآن الكريم وسنة الرسول الله (ﷺ) الصحيحة مرجعية وحيدة ساهمت في حفظ المسلمين من الانحراف والضلال، خاصة في مجتمع النبوَّة ومجتمع الخلافة الراشدة، وساعدت قوة اللغة في هذه العصور، والرغبة في الاجتهاد المنطلق من مصلحة هذه الأمة في حفظ الفكر الإسلامي من الانهيار إلى مزالق الخلاف والاختلاف، وحين اتسعت رقعة العالم الإسلامي، ودخلت أجناس جديدة تحمل معها أفكارها وتأويلاتها وتراثها، كان لزاماً على وحدة الأمة أن تتأثر بما يفرضه اختلاف الأجناس من تداعيات مختلفة، والتي كانت أخطرها ظهور مرجعيات جديدة، اكتسبت في بعض الأحيان، وفي بعض المجتمعات، قداسة تقترب من قداسة القرآن.

لسنا في مقام تفصيلي في هذه القضية، ولكن أريد القول: إن ظهور التمذهب في عالم الإسلام كان أحد أبرز هذه التداعيات. ولقد أدى هذا بدوره إلى ظهور التعصب المذهبي، والذي طور في نهاية الأمر، ليصل إلى ظهور عصر التكفير، وإذا كنا ننظر إلى المذهبية على أنها إثراء للفكر الإسلامي بما أنتجته من دراسات وآراء، أكسبت الإسلام يُسراً في التشريع وسماحة في التعامل، فإن البعض قد حول ذلك الجانب الإيجابي إلى أداة هدم للمجتمع الإسلامي بما أضفاه على ذلك من عصبية مقيتة كان لها أكبر الأثر في انحراف الخطاب الإسلامي نحو منعرجات لا تخدم الإسلام ولا المسلمين، سواء كان في داخل المجتمع الإسلامي أو في مجتمعات غير إسلامية.

إن التعامل غير الواعي مع قضية التمذهب والذي حذر منه أئمة الاجتهاد في عصور الإسلام المختلفة، قد أنتج مناهج مختلفة في معالجة القضايا

الحياتية، تبتعد كثيراً عن المنهج الذي سار عليه مجتمع النبوَّة ومجتمع الخلافة الراشدة، إذ لم يعد القرآن الكريم هو الأساس في الحكم على الأشياء مناط الاختلاف، وإنما أصبح قول المفكر يحتل مكانة وأهمية كبرى لا تسمح أحياناً بأي رأي آخر. وازداد الأمر تعقيداً حين انحدر الخطاب الإسلامي المعاصر إلى التمحور حول فقيه معين ضارباً عرض الحائط بكل الثروة الفقهية التي أنتجتها عقول المجتهدين في عصور الإسلام المختلفة.

ولم يعد للغة ولا للعقل أثر في الحكم على الأشياء، بل إن قول المجتهد أيّاً كانت صفة اجتهاده، لا يفتح مجالاً للحوار، فإما قبول به وإما وقوع في دائرة الضلال والعصيان.

إن منهجية التلقين التي تفشت في المجتمع الإسلامي قد سببت كثيراً من المشكلات الفكرية، لعل من أهمها ابتعاد الفكر الإسلامي عن الاهتمام بمقاصد الشريعة، الذي هو من أشرف العلوم وأجلها والذي يفتح من آفاق المعرفة بمستهدفات الشريعة ما لا يحتمل معه أي طريق لضيق الوقت، أو لانغلاق الفكر، فالعالم بمقاصد الشريعة قادر على التعامل بوعي وانفتاح مع كل المستجدات، دون التفريط بالثوابت والأصول، يضاف إلى هذه المشكلة ما سببته هذه المنهجية من انعدام روح الحوار على كافة المستويات.

إن مظاهر مشكلة المرجعية كثيرة ومتعددة؛ لا نستطيع أن نأتي على كل أنماطها، ولكن حسبنا القول: إنها مؤثرة، وبشكل كبير، في الخطاب الإسلامي المعاصر، وتأثيرها يبرز بشكل خاص في التالي:

أولاً: تقديم الإسلام بالصورة التي لا تفسح المجال للعقل بأن يكون له دور في قبول الحكم من عدمه؛ فالأثر مهما كانت درجة صحته أو عقلانيته، هو المعوَّلُ عليه دائماً، والخروج عنه بالضرورة يؤدي إلى الوقوع في المحظور.

ثانياً: إكساب بعض الآراء صفة القداسة، بما يجعلها غير قابله للرد، وفي واقع الأمر، أنها ليست كذلك.

ثالثاً: تأسيس مسلمات جديدة في الفكر الإسلامي، ليس لها أساس في كتاب الله ولا في سنة الرسول (ﷺ)، وإنما أساسها فقط آراء ضعيفة لا تصمد أمام البحث العلمي الرصين.

رابعاً: فتح المجال أمام دعاة الفكر التقليدي والاتجاهات العلمانية للهجوم على الإسلام بما يصطادونه من آراء وفتاوى وأحكام واجتهادات ليست محل اتفاق بين المسلمين، وإنما جاءت استناداً إلى مرجعيات مختلفة ومتباينة الاجتهاد والاتجاه.

ثانياً ـ انعدام الحوار:

الخطاب القرآني ذو طبيعة حوارية، والخطاب الإسلامي المنطلق من القرآن ضرب أمثلة رائعة في الحوار، ليس فقط مع المخالفين، وإنما حتى مع المعاندين والأعداء، والناظر إلى التاريخ الإسلامي، في فتراته الصافية، يجد ألواناً من الحوار كان لها أثر كبير في إقبال الناس على هذا الدين. وحين ضعف المجتمع الإسلامي اختلَّت الكثير من القيم، واختفت الكثير من المثل، وكانت سمة الحوار من أكثر السمات تأثراً، ولعلَّ العالم المعاصر يشهد أعلى درجات هذا التأثر؛ فالمسلمون الآن يصعب عليهم، تحت تأثير الفرقة والتشيع، أن يقبلوا بحوار مع الآخر مسلماً كان أو غير مسلم، وظهر ذلك جلياً في الخطاب الإسلامي المعاصر الذي حملته بعض أقلام التيارات الإسلامية التي أدى بها رفض مبدأ الحوار إلى الوقوع في دائرة التكفير لكل مخالف.

إن مسألة رفض الحوار مع الآخر، باتت مرضاً يهدد جوانب متعددة من حياتنا المعاصرة، ودخل حتى في أكثر مؤسساتنا الفكرية، التي يفترض أنها آخر معاقل الحوار، ومن هذا المنطلق، سارع الغرب إلى استغلال هذا الجانب، بصنع قضايا، واختلاق مشكلات فكرية ـ تربك الخطاب الإسلامي وتضعه في صراع

مع مختلف التيارات الفكرية الأخرى، وقد ينتج عن ذلك أحياناً، خلق أصنام فكرية، تعبد وتقدس وتحترم في عالم الغرب، لأنها تتبنى الإسلام وهي منه براء.

إن فكرنا الإسلامي بتراثه العظيم يسجل قيماً فريدة في التعامل مع الآخر قلَّما نجد لها نظيراً في أفكار الآخرين، والمستعرض لهذا التراث يصعب عليه حصر النصوص التي تتناول أخلاقيات الحوار وآداب التعامل مع الآخر وأسس المناظرة والجدل بالحسنى كما حثَّ عليها القرآن الكريم، ويكفينا هنا استعراض شذرات من هذا التراث كإشارة إلى انفصال بعض دعاة الخطاب الإسلامي المعاصر عن تراثهم الأصيل، يقول ابن رشد: «لا بد أن يسمع الإنسان أقاويل المختلفين في كل شيء يبحث عنه إن كان يجب أن يكون من أهل الحق»[1]، ويقول ابن حزم: «إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علماً وأجراً، لا حضور مستغنٍ بما عندك، طالباً عثرة تشيعها، أو غريبة تشنعها؛ فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في العلم أبداً»[2].

ويرى الجاحظ في رسائله أن التعصب مهلكة فيقول: «العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقى ديناً إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها»[3].

ومن مساوئ الصدف أن يعبر غيرنا عن ما يجب أن نقدمه نحن للعالم وما هو من صميم رسالة الإسلام، يقول فدريكو مايور، المدير السابق لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونيسكو): «إن كل ثقافة تمتلك قيماً يجب الاعتراف بها وتقديرها ضمن هذا التنوع، ولكن ضمن هذا التفرد الذي يميز كل كائن بشري من أجل فهم الآخر واحترامه وحبه، إن التنوع الثقافي يشكل غنى

(1) ابن رشد، تهافت التهافت، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت، 1998م، م2. ص 26.

(2) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة ـ بيروت، 1976م، ص 2.

(3) الجاحظ، الرسائل، تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة، 1964م، ص 20.

الإنسانية، والتعدد الديني والثقافي هما عماد السلام الدائم. كلنا مختلفون، ولكنا متحدون من أجل إعادة اكتشاف الرسالة العميقة للسلام والتأكيد عليها»[1].

ثالثاً ـ الخلط بين السياسي والديني:

لعل من أبرز مشكلات الخطاب الإسلامي المعاصر هو الخوض بقوة في تعاطي المسألة السياسية، والتنظير لها والدفاع عنها بروح يعتقد أصحابها أنها إسلامية، وعلى الرغم من أن الإسلام لم يقرر نمطاً معيناً للحكم، سواء في القرآن أو في مجتمع القدوة ـ مجتمع النبوَّة ـ إلا أن الكثير من الباحثين تمسك بتنظير أنماط مختلفة من النظم السياسية وتقديمها على أنها الإسلام، وتأتي في مقدمة ذلك مسألة الخلافة، التي أخذت من الخطاب الإسلامي المعاصر قدراً من الجهد غير يسير، في محاولة لإثبات أنها الأصح والأقدر على حل مشكلات العالم الإسلامي المعاصر، وهي القناعة التي قد لا تتفق مع وجهات نظر أخرى، تدعي أنها إسلامية، وتدعي أن مشكلة العالم الإسلامي في نكسته بنظام الخلافة وخاصة المتأخر منها، وقد بدأ الخطاب الإسلامي المعاصر يميل إلى التنظير أخيراً لفكرة التعددية الغربية على أنها الأقرب إلى منهج الشورى التي دعا إليها القرآن الكريم، وتحت تأثير المسألة السياسية نشأت مساجلات ونقاش وجهد فكري، على مختلف الأصعدة، لم ينتج عنه إلا ابتعاد عن روح الإسلام، وتجذُّر للخلافات، وتحول المجتمع الإسلامي إلى طوائف متصارعة، كان من الممكن تجاوز كثير من مصائبها.

إن الخطاب القرآني يفسح المجال أمامنا لننظم أمرنا السياسي بطريقة لا تخرج عن مبدأ الشورى، ومنهجية الرأي الجماعي، والخطاب الإسلامي المعاصر يحاول أن يقنعنا بأشكال من النظم السياسية لا تتناسب وعصرنا، والتي يعتبرها أنها تنزيل من حكيم خبير.

---

(1) د. مصطفى الحاج، أخلاقيات الحوار مع الآخر في الفكر العربي الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 2002م.

وهذا الأمر يسري على الكثير من القضايا الدنيوية التي تشتد فيها لهجة الخطاب الإسلامي المعاصر، لدرجة تغيب معها سماحة الإسلام ويسر تشريعاته، وتنعدم فيها الفرصة التي وهبها الله لنا في كتابه بصون أمورنا الحياتية بما يتلاءم مع الزمان والمكان، ووفق ثوابت الشريعة التي حددت في القرآن الكريم.

رابعاً ـ سهولة الوقوع في شرك الاستفزاز:

لعل ضيق الأفق الذي اتسم به بعض دعاة الخطاب الإسلامي المعاصر في كثير من نتاجاتهم الفكرية، قد أدى إلى مشكلة أخرى تمثلت في عدم القدرة على التعامل مع الآخر، الذي يحاول أن يخترق الخطاب الإسلامي من داخله عن طريق دفعه لمناقشة قضايا يعتبرها رموز الخطاب الإسلامي محرمة، وبالتالي تنشب معارك كلامية، الخاسر فيها هم المسلمون، الذين يوصفون دائماً بالتعصب، وعدم إتاحة الفرصة للحرية العلمية وحرية الفكر، إلى آخر ذلك مما قد يسببه عدم القدرة على التعامل مع (الآخر) من آثار قد يطول زمنها، ويطال جوانب أخرى من حياتنا المعاصرة. ولسنا ببعيدين عن قضية سلمان رشدي وتداعياتها المختلفة.. ولسنا بحاجة إلى التذكير بما قاله المشركون للرسول (ﷺ) وما وصفوه به، وكيف كانت مواجهته (ﷺ) لهذه المواقف. ولسنا ببعيدين أيضاً عن كثير من المعارك الفكرية المعاصرة التي شغلت الخطاب الإسلامي المعاصر عن معالجة قضايا أهم تخدم الأمة الإسلامية في مواجهة تحديات الصهيونية الصليبية، ومن ذلك مثلاً: قضية حرمة تعاطي الفن وجوازه، وحرمة زراعة الأعضاء البشرية وجوازها.. إلخ.

خامساً ـ الجنوح إلى النهائية في الأحكام:

وهي من مظاهر أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر بل ومن أخطرها؛ فبعض أنواع الخطاب الإسلامي المعاصر تتحدث عن عدد من قضايا الشريعة وكأنها تنزيل من حكيم حميد لا مجال للخلاف فيها، ولا اعتراف برأي الآخر في مناقشتها، والأمثلة كثيرة خاصة في قضايا اللباس والمظهر والعلاقة بين الرجل

والمرأة، ودور المرأة في المجتمع.. إلخ، وهذه القضايا فيما نعتقد أنها من الظني الذي ينفسح فيه النظر بسعة للوصول إلى اجتهادات تختلف فيها الأفهام، وليست المدارس الفقهية إلا مظهراً لاختلاف الأفهام، يقول أحد الباحثين: «إن فهم الدين جهد متواصل، من قبل أجيال الأمة لا يتوقف، ولا يمكن أن يدعى في زمن من الأزمان أن تعاليم الدين قد استنفدت جهود الفهم، فليس للاحق أن يضيف اجتهاداً جديداً فيه، وذلك لأن الاجتهاد في فهم الظني يقوم على معطيات وقرائن يرجع بعضها إلى ذات البينة النصية، ويرجع بعضها الآخر إلى ما هو خارج عنها من مكشوفات الحقائق في الكون والحياة، وهي معطيات متجددة متنامية، مما يجعل الاجتهاد في الفهم، وما ينشأ عنه من نتائج متجددة متنامية أيضاً»(1).

إن الخطاب الإسلامي الذي يعرض قضاياه بمنطق النهائية يعلن بطريق غير مباشر: أنه يغلق أي باب للتجديد، ويمنع أي محاولة للاجتهاد، ويعين نفسه أنه وكيل الله على الأرض، وهذا مصدر كثير من الأخطار التي تهدد الفكر الإسلامي المعاصر، بل وتهدد مستقبل الدعوة الإسلامية في وقت نحن أحوج فيه إلى فتح المجال واسعاً أمام البحث العلمي الجاد والرصين، ليكشف عن مدلولات النص ومقاصد الشرع وسماحة الشريعة بما يناسب ظرفنا الزماني والمكاني، وبما يحقق ثوابت الإسلام في تحقيق السعادة البشرية كافة.

سادساً ـ الإغراق في أمر ثانوي أحياناً، والولوع بالمشكل السياسي أحياناً أخرى:

وهو سبب من أسباب أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر أبعدته عن تشخيص مشكلات الأمة وتقديم حلول ناجحة لها، فإذا كانت الأمة تعاني أخطار التغريب والتنصير والتهويد ومسخ الهوية، فإن الخطاب الإسلامي في كثير من بلدان العالم الإسلامي منشغل بعذاب القبر وسؤال الملكين وإطالة

(1) د. عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهماً وتنزيلاً، كتاب الأمة، ع 22، 1410هـ.

اللحية وعدم السلام على الأجنبية والتحسر على الخلافة.. إلخ، وإذا كنا نتفق على أن هذه المسائل مما يجب أن تبحث أيضاً إلا أن هناك أولويات يجب على الخطاب الإسلامي مراعاتها، إذ تنبيه الأمة إلى أخطارها ومواجهة ما يهدد حياتها يسبق كل حديث؛ خاصة إذا كانت هذه الأخطار مما يهدد العقيدة، يقول د. طه العلواني: «إن خطاب مشروع الإصلاح الإسلامي بشقيه قد أخطأ الرمية، وحوم حول الغرض ولم يصبه، وجل مظاهر الأزمة كامنة في فكر الأمة في المقام الأول، ذلك الفكر الذي تقاعس عن ممارسة التغيير وفق السنن الربانية الثابتة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(الرعد: 11)، إذن هذا الخلط بين العقيدة والفكر يضاف إليه تطرف آخر في الادعاء بأن المعرفة لا دين لها، أو الوقوع أسارى لمقولة عالمية الثقافة الغربية المعاصرة. كل ذلك لا شك أفضى إلى خروج العقل المسلم من دائرة الصراع الحقيقي، وأفسح المجال لطغيان المشروع التغريبي الذي سعى جاهداً إلى ملء الفراغ الفكري، وأكد بالتالي على صحة أمر أن جوهر الأزمة إنما هو فكري»[1].

سابعاً ـ غياب الإستراتيجية المستقبلية:

تلك التي توجه معظم قنوات الخطاب الإسلامي المعاصر، وتدفعه إلى معالجة قضايا هامة في حياة المجتمعات الإسلامية، فلا الخطباء ولا الدعاة يرتبطون بمؤسسة رسمية أو علمية توجه خطابهم إلى الأفضل، كما أن الإذاعات الإسلامية لا تتعاون من أجل إيجاد خطاب إسلامي يتبنى قضايا ثابتة تقوِّم مسيرة الأمة، وإنما العمل العشوائي والفردي هو طبيعة الخطاب الإسلامي المعاصر الذي لا يكتفي بالفردية والأنانية، وإنما يصل إلى التصادم أحياناً سواء بين الدعاة والخطباء والسلطة، أو بين الوسائل الإعلامية عربية وإسلامية، وإذا كان هذا مؤلماً أو مؤثراً، فإن الأكثر إيلاماً هو أن مؤسسات البحث العلمي الإسلامي والجامعات

(1) د. طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995م، ط4.

الإسلامية لم تتبن أي مشروع مشترك وإستراتيجي لإصلاح الخطاب الإسلامي المعاصر في مستوياته المختلفة، مما يفتح المجال واسعاً أمام التيارات المختلفة لتحريكه نحو منعرجات لا تخدم الإسلام ولا المسلمين.

الخطاب الإسلامي المعاصر والظروف الدولية:

لا يختلف اثنان في أن عصرنا بتغيراته المختلفة قد فرض منهجية التغير على كل أنماط الحياة؛ حتى أصبحت الثوابت مهددة بهذا التغير، ولقوة هذه التغيرات وسرعتها أصبح مستحيلاً مواجهة أخطارها إلا بمنهج أقوى يستمد قوته من إمكانات الدين وصلاحيته الدائمة للحياة رغم تغير الزمان والمكان، ويعتمد منهجه على تقدير كافة العوامل المؤثرة في هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحتى الثقافية.

والخطاب الإسلامي المعاصر هو المعني قبل غيره من الخطابات الأخرى بمواجهة هذه التغيرات والتأثير فيها؛ وذلك لأنه:

1 ـ خطاب يستند إلى القرآن الكريم، وهو الحل النهائي لمشكلات البشرية إلى يوم الدين.

2 ـ حاجة البشرية إلى خطاب روحي في مستوى الخطاب الإسلامي.

3 ـ ما يملكه من إمكانات فكرية قادرة على مواجهة كافة التحديات.

ولكن لا يمكن للخطاب الإسلامي المعاصر أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا استوعب الظروف الدولية، وكان قادراً على تحليلها بعمق بعيداً عن السطحية التي صبغت كثيراً من ألون الخطاب الإسلامي في فترات ماضية.

إن أهم الظروف الدولية التي نعتبرها المؤثرة في الخطاب الإسلامي المعاصر يمكن إجمالها في الآتي:

1 ـ **طبيعة الصراع الإيديولوجي العالمي**: الذي انحدر إليه العالم، والذي كان من نتيجته انهيار وهزيمة الفكر الماركسي أمام الفكر الليبرالي، ليتحول الصراع إلى

مواجهة جديدة ومفروضة بين الفكر الغربي والإسلام، ومن هنا شهد العالم ظهور فكرة صراع الحضارات بديلاً لصراع الإيديولوجيات، وكان الإسلام ـ في تصور الغرب المنتصر ـ الدين الأشد خطراً على الفكر الغربي، ومن هنا أصبح الإسلام والمسلمون في فوهة المدفع؛ حيث وجهت الاتهامات، وحيكت المؤامرات واستهدفت الشعوب والدول الإسلامية بمخططات أريد لها أن تطال كل شيء في حياتها.

2 ـ **ظاهرة العولمة**: بما تحمله من قيم وتقاليد، وأنماط عيش ومناهج تفكير جديدة، وهي الظاهرة التي أحسَّ العالم كله بخطورتها وآثارها على منظومة القيم والعادات والتقاليد والعقائد للشعوب في مختلف بقاع الأرض، ورغم ما كتب في توصيف هذه الظاهرة، والجوانب المؤثرة فيها، إلا أنني أعتقد أن خطرها سيطال الجانب الديني، حيث الدعوة قوية إلى تهميش الدين وإبعاده عن الحياة المعاصرة، والدعوة أيضاً إلى إطلاق الحريات إلى الدرجة التي يمكن من خلالها أن تتحول الحياة البشرية إلى حياة حيوانية، وكذلك سيطرة رأس المال المتمثل في الشركات متعددة الجنسية، وتدخلها في كل مقدرات الدول والشعوب دون رادع أخلاقي أو قيمي أو عقدي.

3 ـ **التقدم الهائل والمذهل في تقنية الاتصال**: والذي مكَّن البشرية من الاقتراب إلى درجة يصعب تصورها، فالعالم الذي يصفه البعض بأنه صار قرية كونية فتح المجال لكل الخطابات من أن تسمع: دينية أو غيرها، أخلاقية أو بذيئة، عاقلة أو مجنونة، جادة أو عابثة، ولهذا صار لكل كلمة أثرها، وصار مستحيلاً على الفرد في هذا العالم أن يخفي نفسه أو أن يصم آذانه عما يجري في هذا الكون، وهذه الحالة ـ بكل تأكيد ـ سببت صدمة للفكر الإنساني بإعجاب أحياناً، وبذهول أو استنكار في أحيان أخرى حسب طبيعة المتلقي، كما سببت أيضاً تغيراً في سياسات الحكومات وبرامج المنظمات ومناهج التفكير.. إلخ.

4 ـ **الانتشار الجغرافي السريع والمهم للإسلام**: والذي أصبح معه المسلمون موجودون بقوة في معظم دول العالم؛ وخاصة في دول الغرب، وهو الأمر الذي كشف عن وضعية اجتماعية جديدة عرفت بمجتمعات الأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية، وهي الأقليات التي سجلت حضوراً مميزاً في المجتمعات غير المسلمة؛ وخاصة في المجتمعات الغربية، وقد عبر كتاب جديد صدر في لندن سنة 2003م بعنوان (تحديث الإسلام، الدين والمجتمع داخل أوروبا والشرق الأوسط) لمجموعة من الباحثين، عن هذا الحضور بالقول: «في السنوات الأخيرة أصبح الإسلام قوة مرئية وواضحة ليس فقط في شمال إفريقيا، والشرق الأوسط وآسيا، وإنما أيضاً في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، فالإسلام أصبح الدين الثاني في فرنسا مثلاً، وقل الأمر ذاته في ألمانيا وإنكلترا، وبالتالي فلا ينبغي الاستهانة بثقل الجاليات الإسلامية في الغرب؛ فهي منتشرة أيضاً وبقوة في إيطاليا وإسبانيا وبلجيكا وهولندا والدول الإسكندنافية، وقبل بضعه عقود لم يكن لهذه الجاليات أي ظهور أو تأثير، ولكنها الآن أصبحت تشغل جميع الناس في الغرب، وأصبح المسلمون يخرجون من صفوفهم الكوادر والنخب الثقافية، بل وأصبح لهم نواب في برلمانات أوروبا»[1].

في ظل هذه الظروف الدولية المعقدة والبالغة الخطورة على الإسلام والمسلمين يمكن للخطاب الإسلامي المعاصر أن يقوم بدور مهم يقدم به الإسلام للعالم الغربي المتعطش إلى ما يملأ به فراغه الروحي، ويدافع به عن الإسلام والمسلمين، ويفتح به أبواباً كثيرة للدعوة الإسلامية، فلقد دلتنا التجارب أن الإسلام يزداد انتشاراً عند المحن والشدائد، وليست أرقام الداخلين إلى الإسلام والمقبلين على التعرف عليه بعد أحداث الحادي عشر من

(1) من المكتبة العالمية، موقع بيان الكتاب، الإثنين 23/ 6/ 2003م، العدد 268.

سبتمبر إلا دليلاً على صحة ذلك، إن الخطاب الإسلامي اليوم مؤهَّل لأن يقدم الكثير للشعوب الإسلامية للخروج من أزماتها المعاصرة، وهو مؤهل أيضاً لأن يؤسس لعلاقات أكثر صفاء ونفعاً مع العالم الغربي، ولكن ذلك لن يحدث إلا إذا التزم الخطاب الإسلامي المعاصر بالتالي:

أولاً ـ التزام المنهج القرآني: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: 125) في ميادين الوعظ والإرشاد على منابر الجمعة، وفي صالات المحاضرات في الجامعات، وفي الإذاعات والفضائيات، وفي كل وسيلة يمكن فيها الحديث عن الإسلام، ولعل أكثر المناطق حاجة إلى هذا المنهج هي ساحة العمل الدعوى الداخلي، فالمشتغلون بالخطاب الإسلامي يجب أن يعلموا بأن رسول الله (ﷺ) ما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، وأن الشريعة الإسلامية أتت لتحل مشاكل المسلمين لا أن تخلق لهم المشاكل، لهذا فالبحث عن حلول المشاكل المعاصرة أيّاً كان القائل بها هي الطريق الصحيح لجمع الناس على كلمة سواء، طالما أن هذه الحلول لا تخرج عن ثوابت العقيدة ومقاصد الشريعة.

إن مصادر الخطاب الإسلامي المعاصر مطالبة بالالتزام بهذا المنهج القرآني وبهذا التطبيق النبوي، ومطالبة أيضاً بالارتداد إلى التراث الإسلامي الذي نفخر بأن معظم أعلامه قد عبَّروا في تآليفهم عن أن التعصب والتزمت وضيق الصدر والانغلاق الفكري ليس من سمات المسلم الحقيقي؛ الذي هو قادر على إدراك حكمة الله في تنوع البشر واختلاف الآراء والثقافات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: 13)، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ (الروم: 22)، ولا يخفى هنا أن اللسان هو أداة التفكير.

ثانياً ـ الإدراك الكامل والفهم الشمولي لواقع العالم المعاصر: إذ لا يمكن للخطاب الإسلامي أن يكون مؤثراً في في عالم اليوم بالاعتماد على ثقافة الماضي، إن واقعنا اليوم معقد بصورة يستحيل معها لذوي الثقافة الواحدة أن يؤدوا دوراً فاعلاً في علاج مشكلات الأمة، أو في التعامل مع قضاياها المعاصرة، وخاصة فيما يتعلق بأمر الاجتهاد الفقهي، ولهذا دعوت في بحث آخر إلى ضرورة التحول إلى الاجتهاد الجماعي المؤسسي الذي يقوم على اجتهاد الشورى للمتخصصين في المجالات المختلفة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. إلخ، فالفقيه بثقافته الدينية وحدها لا يمكن أن يتوصل إلى طبيعة المشكلات الصحية والأزمات السياسية والهموم الاجتماعية إلا بمشاركة المتخصص في هذه المجالات، ولعل هذا النوع من التعاون هو أقصر السبل للوصول إلى تحقيق مقاصد الشريعة في مجتمعنا المعاصر.

ثالثاً ـ ينبغي على جميع المتعاطين للخطاب الإسلامي أن يقوموا بمراجعة دقيقة لكل القضايا المؤثرة في عالم اليوم: والتي تشكل عائقاً أمام توحد المجتمع الإسلامي داخلياً، وأمام إقامة علاقات طبيعية ومتينة مع المجتمعات الأخرى، فالكثير من القضايا التي يعتبرها الآخرون غير مسايرة للعصر في الفقه الإسلامي ليس مصدرها كون الخطاب التشريعي لا يستوعب غيرها، وإنما مصدرها تعصب القائلين بها، وعدم قدرتهم على تقبل الرأي الآخر.

لقد حضرت مرة مؤتمراً إسلامياً في النمسا ألقت فيه وزيرة خارجية هذا البلد خطاباً؛ تحدثت فيه عن استحالة إقامة علاقات طبيعية مع المسلمين ما لم يراجعوا كثيراً من أطروحاتهم الدينية، وعددت بعض هذه القضايا وكان من بينها مسألة القول بتقسيم العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب، ولقد ذهلت لهذه المقالة من هذه الوزيرة، إذ إنها عبَّرت عن إحساس سياسي ناتج لفكر اعتبرته أنه عدواني يقوم على إعلان الحرب المستمر على الآخر، وهو الأمر

الذي لا تستهدفه الشريعة الإسلامية؛ على الرغم من أن هذه القسمة يقول بها ويتشبث بها الكثير من الذين يعتبرون مصادر للخطاب الإسلامي المعاصر، غير معتبرين لظرفية هذه القسمة الزمانية والمكانية.

وبالرجوع إلى تراثنا الزاخر بالعطاء نجد أن الأقدمين من علمائنا قد قدموا: «مراجعات ومحاولات تصديق بالقرآن على هذا التقسيم؛ كان من أبرزها وأكثرها انسجاماً مع (عالمية الإسلام) ما نقله الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير عن القفال الشاشي؛ مفاده: أنه يمكن تجاوز قسمة الأرض المألوفة لدى الفقهاء إلى دار إسلام ودار الحرب ودار عهد، إلى قسمة أخرى تنسجم و(فعالية الإسلام وعالميته) وخواص شرعته ومنهاجه، والقسمة التي صرَّح بها أن تكون الأرض دارين: دار إسلام، ودار دعوة، فدار الإسلام هي التي يدين أكثر أهلها بالإسلام، وتعلو فيها كلمة الله، ودار الدعوة هي التي على المسلمين أن يبلغوها الرسالة، ويوصلوا إليها الدعوة، وأن أمم الأرض وشعوبها أمتان: أمة إجابة وهي الأمة المسلمة، وأمة دعوة وهي سائر الأمم الأخرى.

ولا شك أن هذا الذي قرره الشاشي ومن بعده الرازي تترتب عليه مراجعات لأحكام فقهية كثيرة ترتبت على القسمة الأولى، وفي مقدمتها: أن الدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال والمحاورة بالتي هي أحسن، ونوع آخر من العلاقات وتغيير في أولويات الدولة وسياساتها»[1].

وهذه المراجعة تصدق على كثير من القضايا التي اعتبرها الآخرون مسلمات تشريعية بينما هي لا تعدو أن تكون رأياً له آراء كثيرة تقابله وقد تعارضه.

رابعاً - يهتم الفكر العالمي المعاصر بكثير من القضايا والأفكار: التي يعتبرها العنصر الأساسي في سعادة البشرية؛ وذلك كحقوق الإنسان والتعددية

(1) د. طه جابر العلواني، مقاصد الشريعة، ص 56.

السياسية والمحافظة على البيئة والرفق بالحيوان.. إلخ، **وتستخدم هذه المفاهيم أحياناً سيفاً مسلطاً على الشعوب الإسلامية** باعتبارها تهدر هذه الحقوق، وتدمر تلك القيم، مع أن البحث العلمي الرصين بيَّن أن إهدار هذه الحقوق وتدمير تلك المبادئ والقيم يتم في الغرب الذي يعتمد على آلته الإعلامية التي تظهر الباطل حقاً والحق باطلاً، ولست في معرض تفصيل لهذه القضية، وإنما أردت أن يتجه الخطاب الإسلامي المعاصر لاستثمار هذا الاهتمام العالمي لهذه القضايا ليبرز رأي الإسلام فيها، وأسبقيته في إقرارها والتأكيد عليها، وبهذه المنهجية يستطيع الخطاب الإسلامي أن يشد الأنظار إلى ما يزخر به الإسلام من عطاء إنساني متميز لا تضاهيه فيه أية ديانة أخرى.

خاتمة

إنني أختم هذه الورقة بأن أتفق مع أحد الباحثين بقوله: «يجب أن يكون مصدر الخطاب الإسلامي هو القرآن والسنة، وأن يوجه إلى عقل الإنسان الناضج، وأن يراعي تفاوت عقول الناس والمستويات العمرية والثقافية والاجتماعية لجمهور المتلقين، وأن يتم اختيار الموضوع المناسب للمكان المناسب والزمان المناسب، وإلى جانب ذلك يجب أن يكون الخطاب الإسلامي متسماً بالوضوح واليسر والجاذبية، وأن يوضح الفرق بين الإسلام كعقيدة وشريعة وأخلاق وبين واقع المسلمين، وأن يلعب العقل والاجتهاد الدور الأكبر في هذا الخطاب، ويجب ألا يتصدى للخطاب الإسلامي إلا المؤهلون من النواحي الشرعية والاجتماعية والنفسية واللغوية، والتنسيق بين المشتغلين بالخطاب الإسلامي الموجه للدول غير الإسلامية، والابتعاد عن التشدد والتعصب في عرض حقائق الإسلام»[1].

هذه هي أهم القضايا التي رأيت أن أنبه إليها في هذا الموضوع المهم والمتسع، والذي كما قلت في بداية هذه الورقة: إن مراجعته ضرورة ملحة تفرضها حاجة العالم الإسلامي داخلياً قبل أن تفرضها التحديات التي تواجه المسلمين خارجياً، والله نسأل أن يمكن جميع المشتغلين بالخطاب الإسلامي في كافة مستوياته من أن يكونوا رسلاً حقيقيين لهذا الدين يدعون إليه، ويذودون عنه، ويفتخرون بالانتساب إليه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(1) د. نبيل السمالوطي، الشعوب الغربية والخصومة مع الإسلام، جريدة البيان الجمعة 13/ 9/ 2002م.